العربي الجديد
ملحق شهري
الأحد 27 أكتوبر/ تشرين الأول 2024 م 24 ربيع الآخر 1446 هـ ■ العدد 111 السنة الحادية عشرة Sunday 27 October 2024

فلسطين

رصد
توجهات حكومة الاحتلال الحالية على جبهات العدوان داخل فلسطين وخارجها
3.2

قراءة
انعكاسات التصعيد العسكري الإيراني تجاه إسرائيل فلسطينياً وعربياً
7.6

تحليل
الجبهات المتعددة بين الواقع وخطاب الأطراف المنخرطة في محور الممانعة
5.4

الاحتلال يستهدف الأطفال ويدمر مقومات الحياة في فلسطين المحتلة (رامي زهد/فرانس برس)

عن «المرحلة الجديدة» من الحرب الإسرائيلية

أنطوان شلحت

قبل أسبوع من حلول الذكرى الأولى لاندلاع الحرب على غزة (يوم 7 أكتوبر/تشرين الأول 2023)، دخلت إسرائيل إلى ما تصفها بأنها «مرحلة جديدة» من القتال، تتسم بتوسيع نطاق الحرب، لتشمل الجبهة الشمالية، حيث شرع الجيش الإسرائيلي في شنّ ما قال إنّها «عملية برّية مركزة» في جنوب لبنان، معلناً أنها ستركز، في بدايتها، على البنى التحتية التي أنشأها حزب الله قريباً من منطقة الجدار الحدودي، تحضيراً لشنّ هجوم على المستوطنات والقواعد العسكرية الإسرائيلية الحدودية. وتترافق بداية المرحلة البرّية، حسبما أكدت جلّ التقارير الإسرائيلية، مع احتكاكات يومية وجهاً لوجه مع عناصر حزب الله في جنوب لبنان، ما يؤدي إلى وقوع خسائر في الأرواح في صفوف الجيش الإسرائيلي على نحو شبه يومي.

وبعد أن ركزت الحرب الإسرائيلية في البداية على غزّة، تحوّل الجهد الرئيسي الآن إلى الشمال، بالتوازي مع تصاعد الاحتكاك مع إيران وتفاقم خطر اندلاع حرب إقليمية.

وبدأت هذه المرحلة بتحقيق إنجازات عسكرية إسرائيلية، في مقدمتها تصفية قيادة حزب الله، أولهم الأمين العام حسن نصر الله، وإلحاق أضرار بالبنية التحتية للحزب، وهو ما أحدث، بحسب عدد من المحللين والباحثين، تحوّلاً كبيراً في المزاج الإسرائيلي، من جوّ ميّزه انتشار الصدمة بعد 7 أكتوبر، والإحباط من حرب استنزاف طويلة في غزّة، إلى انتشاء مصحوب بازدراء مُتجدّد للخصم، وتوقعات بتغيير قريب في منطقة الشرق الأوسط برمتها.

يوحي المشهد المستجد نتيجة توسعة نطاق الحرب، حتّى لحظة كتابة هذه السطور، بما يلي:

أولاً: تركت إسرائيل قضية قطاع غزّة، وحرب الإبادة الجماعية والتدمير الشامل عليه مفتوحة، وفتحت جبهة رئيسية في لبنان، وهي تعرب عن القلق من احتمال تدهور الأوضاع الأمنية في الضفّة الغربية، كما أنّها تحت تهديد «وكلاء إيران» في اليمن وسورية والعراق، وربما تجد نفسها قريباً في مواجهة أكثر حدّة مع إيران. ويتفق جميع الخبراء الإسرائيليين في الشؤون العسكرية على أنه في خضم حرب تضرب فيها بكل الجبهات، وتصارع فيها الأطراف كافّة، يصبح من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، وضع أولويّات، فضلاً عن صوغ استراتيجية طويلة المدى، كذلك من المستحيل توقع دعم دولي مستمر في الجبهات كلّها. ووفقاً لما يشدّد عليه المقربون من رئيس الحكومة، بنيامين نتنياهو، ما زالت الحكومة الإسرائيلية تأمل بأن يؤدي الضغط العسكري في قطاع غزّة إلى إطلاق المخطوفين الإسرائيليين، خصوصاً بعد تلقيها جرعة أمل زائدة، بعد اغتيال قائد حماس يحيى السنوار يوم 2024/10/16، كما تأمل بأن يؤدي الضغط العسكري المتدرج في لبنان إلى إبعاد قوة الرضوان عن منطقة الحدود، وإعادة النازحين الإسرائيليين إلى منازلهم في مستوطنات الشمال، لكن في هذه الأثناء وعلى الجبهتين لم يتحقق الهدف السياسي، وتجد إسرائيل نفسها في حالة استنزاف مستمرة غير معروف متى تنتهي.

ثانياً: ما يُستشف من التصريحات الإسرائيلية الرسميّة أن لدى إسرائيل «مصلحة استراتيجية طويلة المدى، وضرورية» في إبادة حماس كلياً، على الصعيدين العسكري والسلطوي. كما لديها أيضاً مصلحة ضرورية استراتيجية في إبعاد حزب الله، على الأقل عن حدودها، وتفكيك قدراته الهجومية بالصواريخ والقذائف، فضلاً عن أن تفكيك ترسانة الصواريخ الإيرانية - اللبنانية هي أيضاً مصلحة عليا، من أجل نزع قدرة إيران على ردع إسرائيل عن ضرب مشروعها النووي. والرأي السائد الذي يروج الآن هو أن طريقة العمل الوحيدة، التي يمكن أن تستجيب لهذه الحاجات في جبهتي قطاع غزة وجنوب لبنان، هي الاحتلال، والسيطرة على الأرض، وفرض حكم عسكري، والاقتحامات.

> تجد إسرائيل نفسها في حالة استنزاف مستمرة غير معروف متى تنتهي

تجاهل التحذيرات من مخاطر حرب إقليمية واسعة

ارتباط إسرائيل بالجبهات المتعددة

لم تلغ المؤسسة الأمنية والعسكرية والقيادات السياسية الحاجة إلى فتح جبهة واسعة مع حزب الله، بل قالت إنّها ستقوم بذلك في التوقيت المناسب، بعد الانتهاء من العمليات العسكرية الواسعة والكبيرة في قطاع غزة

طفل يحمل ملصقاً لبنيامين نتنياهو في تظاهرة مؤيدة للفلسطينيين في تورينو بإيطاليا (سيفانو جويدي/Getty)

أمطانس شحادة

سعت إسرائيل، منذ بداية حرب الإبادة على قطاع غزّة، إلى فرض فصل تكتيكي وزمني بين جبهتي غزّة وجنوب لبنان، كان الهدف الأساسي منه منع فتح جبهات عدّة في الآن ذاته، لمنع تشتيت قدرات الجيش وموارده، البشرية والمادية، خصوصاً أن هجوم حماس في السابع من أكتوبر/تشرين الأول كان مباغتاً، ولم يتحضر له الجيش مسبقاً، كما لم يكن، الجيش الإسرائيلي، مهيأ لخوض حرب واسعة على جبهتين، لذا وجّه الهدف والجهد الأساسي بعد عملية السابع من أكتوبر لضمان تماسك المجتمع والجيش في إسرائيل، على أثر الكسر الكبير في المعنويات، وتراجع الشعور بالأمن الجماعي والشخصي. كما سعت المؤسسة الأمنية والعسكرية في الأيام الأولى، بعد عملية «طوفان الأقصى»، لضبط جبهة الجنوب، وإخراج مقاتلي حماس من البلدات الإسرائيلية، ومنع دخول مقاتلين إضافيين، وسد الثغرات، والتحضير للهجوم المضاد على قطاع غزّة، والاستعداد للحرب التي أعلنت في السابع من أكتوبر، لأول مرّة منذ 1973.

رفض رئيس الحكومة الإسرائيلية، بنيامين نتنياهو، وفقاً للإعلام الإسرائيلي، في 11 أكتوبر 2023، اقتراح كلّ من وزير الأمن، يوآف غالانت، وقيادة أركان الجيش بخصوص توجيه ضربة استباقية لحزب الله في لبنان، لمنعه من مفاجئة إسرائيل، والقيام بهجوم واسع في الشمال. هذا الاعتبار كان وراء تسريع دخول حزب المعسكر الرسمي بقيادة بيني غانتس إلى حكومة الحرب. لكن، وبالرغم من هذه المواقف، ومن تصدر جبهة غزة لسلم أولويات الحرب الإسرائيلية، لم تلغ المؤسسة الأمنية والعسكرية والقيادات السياسية الحاجة إلى فتح جبهة واسعة مع حزب الله، بل قالت إنّها ستقوم بذلك في التوقيت المناسب، بعد الانتهاء من العمليات العسكرية الواسعة والكبيرة في قطاع غزة، عندما يكون الجيش الإسرائيلي جاهزاً لذلك. كما شددت القيادات العسكرية، وكل المحللين، بأن إسرائيل هي التي يجب أن تقرر متى تبدأ الحرب وكيف؟

> تحدثت إسرائيل عن أهمّية فصل الجبهات، لا لمنع ذلك، إنّما لترتيب الأولويّات

أهداف الحرب الاستراتيجية

غرفت إسرائيل إبران بأنّها العدو الأخطر في العقدين الأخيرين، وبأنّ التعامل مع برنامج إيران النووي هو الأهمّ بالنسبة لها. من هنا لم يقتصر تعامل إسرائيل وردها على طوفان الأقصى على الرغبة في الانتقام والثأر، وتدمير قدرات حماس العسكرية والمدنية في غزة، وتدمير البنى التحتية والمدنية، وفي تهجير سكان القطاع، بل بدأت، مع مرور الوقت وتوسع الحرب، في استغلال الحالة الناشئة، والإنجازات الميدانية، من وجهة نظر إسرائيل، وردة الفعل الدولية الباهتة، وعدم تدفيع إسرائيل ثمناً جدياً في المحافل الدولية، من خلال توسيع/ زيادة أهداف الحرب، لتكون مدخلاً لإعادة ترتيب الحالة الجيو-استراتيجية لإسرائيل، ومنها تغيير جوهري في حالة ومكانة قطاع غزّة، وتغيير الحالة الأمنية الاستراتيجية عند الحدود الشمالية، وتوجيه ضربة قوية لحزب الله، ومحاولة تقليم أظافر إيران في المنطقة، وضرب مخططاتها لإقامة طوق ناري حول إسرائيل، وربّما توجيه ضربات مباشرة لقدرات إيران العسكرية، والمرافق الاقتصادية بهدف إضعاف النظام.

أرادت إسرائيل استغلال الحرب لإغلاق حساباتها مع محور إيران، وخلق واقع عسكري جديد يمكنها من تغيير استراتيجيتها تجاه القضية الفلسطينية، وترتيب علاقاتها مع الدول العربية في المنطقة. بذلك لم تكتف إسرائيل بالأهداف العسكرية والأمنية المعلنة وغير المعلنة للحرب، إنما أرادتها أن تشكل نقطة تحول أيضاً في الجانب السياسي، وفي التعامل مع القضية الفلسطينية.

> أرادت إسرائيل استغلال الحرب لإغلاق حساباتها مع محور إيران، وخلق واقع عسكري جديد يمكنها من تغيير استراتيجيتها تجاه القضية الفلسطينية

تطبّق تحقيق الإنجازات الإسرائيلية العسكرية خوض حرب واسعة مع حزب الله تسعى فيها إسرائيل إلى الحسم، وبذلك؛ وعلى عكس التكهنات العديدة، التي سادت منذ السابع من أكتوبر، فإنّ إسرائيل نفسها هي من قامت بالربط بين الجبهات، وكانت على قناعة بأنه لا يمكن إنهاء الحرب على غزّة، وتحقيق أهداف الحرب كلّها، العسكرية والسياسية والاستراتيجية، من دون توجيه ضربات جدية لحزب الله.

ربط الجبهات... إسرائيل تختار التوقيت

وضّحت إسرائيل منذ السابع من أكتوبر بأنها لن تقبل باستمرار الوضع القائم على الحدود الشمالية، ووجود قوات لحزب الله على حافة الحدود مع إسرائيل، منعاً لأي احتمال لتنسخ ما حدث في محيط غزّة، وبشكل أكبر بمرات عدّة على الحدود الشمالية. وقالت إنّها ستسعى إلى تغيير الوضع القائم على الحدود الشمالية منذ انتهاء حرب تموز/يوليو 2006، إما عبر اتّفاق دبلوماسي، أو عبر أدوات أخرى، وكانت تدرك تماماً أنها لا تستطيع تحقيق ذلك عبر اتّفاق دبلوماسي يجبر حزب الله على سحب قواته العسكرية إلى نهر الليطاني.

منذ بداية ما سماه حزب الله بـ«جبهة الإسناد» خاضت إسرائيل وحزب الله معارك محدودة على الجبهة الشمالية، إذ لم تتجاوز الضربات المتبادلة عمق عشرة كيلومترات من الحدود، وقد التزم الطرفان، إلى حدّ بعيد بهذه المعادلة، مع أنّ إسرائيل اخترقتها مرات عديدة، من دون رد مماثل من قبل حزب الله، على ما يبدو؛ استغلت إسرائيل الانطباع بأنّها لا تستطيع، أو لا تريد، فتح جبهة موازية مع حزب الله، وقررت استغلال معركة غزّة، واستنزاف المواقف العالمية المعارضة لهذه الحرب، من دون أنّ تؤثر على السلوك الإسرائيلي، ونظراً إلى محدودية الثمن الذي تدفعه، عملت على تنفيذ خطط معدة سلفاً لضرب حزب الله.

> أرادت إسرائيل استغلال الحرب لإغلاق حسابات مع محور إيران، وخلق واقع عسكري جديد يمكنها من تغيير استراتيجيتها تجاه القضية الفلسطينية

انتقلت إسرائيل، منذ منتصف سبتمبر/أيلول، إلى محاولة حسم المعركة مع حزب الله، أو على الأقلّ توجيه ضربة كبيرة ومؤلمة لحزب الله، في محاولة للقضاء على قدراته العسكرية، أيّ لم تعد تكتفي بإجباره على فك الارتباط بين جبهتي لبنان وغزة، ووقف إطلاق النار. يشعر نتنياهو، وحكومته، بأنهما مطلقا اليدين، إذ استغلت إسرائيل ضعف المواقف الإقليمية والدولية من حرب الإبادة، التي تشنها على قطاع غزّة منذ عام، وعدم تأثير الاحتجاجات الشعبية العالمية، وانشغال الولايات المتّحدة، المؤيدة لما تسميه «حرب إسرائيل ضدّ الإرهاب»، بالانتخابات الرئاسية، المقررة في 5 نوفمبر/تشرين الثاني 2024، لتجاهل التحذيرات من مخاطر حرب إقليمية واسعة، وشن عمل عسكري واسع ضدّ حزب الله، وحتى لتكرار سيناريو غزّة في لبنان، بغية تحقيق الأهداف الاستراتيجية للحرب.

واقع جديد في إسرائيل

تغيرت إسرائيل منذ السابع من أكتوبر 2023، وبات المجتمع والمؤسسة العسكرية، والقيادات السياسية أكثر استعداداً لدفع الثمن، بأرواح قوات الجيش، وأيضاً في الجبهة الداخلية، بغية مسح عار السابع من أكتوبر، وتغيير حالة إسرائيل الاستراتيجية، وترميم قدرة الردع، منعاً لأيّ تكرار لأحداث السابع من أكتوبر.

تحدثت إسرائيل عن أهمّية فصل الجبهات، لا لمنع ذلك، إنّما لترتيب الأولويّات والتمويه والخداع، وترتيب الأوراق داخلياً، خاصّة تهيئة الجيش لفتح جبهة مع حزب الله. إذ أرادت إسرائيل التحرّج الأحداث لتعميق المواجهة مع إيران، خصوصاً أنّها مقتنعة بأنّها نجحت في تقليم قدرات حزب الله الصاروخية، الذي باتت ضرباته للعمق الإسرائيلي أقل إيلاماً، وبعد تدمير كبير لقدرات حماس، وكذلك الضربات التي وجهتها لليمن وجماعة الحوثيين.

> أرادت إسرائيل استغلال الحرب لإغلاق حساباتها مع محور إيران، وخلق واقع جديد

عملياً، تربط إسرائيل؛ بنفسها، الساحات والجبهات المتعددة، لأنّها؛ كما صرّح مرات عدّة رئيس حكومتها نتنياهو، تخوض حرباً غير مباشرة ضدّ إيران، ولأنّها تريد استغلال الحالة الناشئة إسرائيلياً وإقليمياً ودولياً، بعد السابع من أكتوبر، لتوجيه ضربة قوية لإيران، ربّما تأخر أو تضعف البرنامج النووي. تعتقد إسرائيل أن ذلك يساهم في تمكينها من الانفراد في تحديد مصير القضية الفلسطينية، عبر إلغاء حالة الاحتلال، وتحويلها إلى حالة طبيعية، ومنع إقامة دولة فلسطينية، والسيطرة على مناطق «ج»، وتوسيع الاستيطان، والسيطرة الكاملة على قطاع غزّة، فضلاً عن أن هذا كله يخدم مصالح نتنياهو السياسية، ويساهم في ترميم مكانته السياسية داخل إسرائيل. السؤال هنا: هل تستطيع إسرائيل تحقيق ذلك كلّه؟ إسرائيلياً، ورغم ما يعتبره محللون كثر، وقيادات عسكرية سابقة وراهنة، إنجازات عسكرية مهمة، فإنّ الإجابة عن سؤال مصير ونتائج هذه الحرب غير محسوم، إذ تتضارب المواقف حول تحقيق إنجازات استراتيجية وسياسية على الجبهات المختلفة، فهناك من يعرب عن تشاؤمه بشأن ربط الجبهات، وتقدم المعارك، التي يخوضها الجيش الإسرائيلي في مختلف الساحات؛ على سبيل المثال، يعتبر غيورا ايلاند، الجنرال في الاحتياط، ورئيس مجلس الأمن القومي سابقاً، ومن أبرز المنظرين لحرب الإبادة في غزة وشرعنتها، أنّ «إسرائيل في وضع لديها سبع ساحات مفتوحة، ولا تقترب من النهاية في أيّ منها، وليس لدينا فكرة عن كيفية الانتهاء من هذه الجبهات». كما يقول إن إسرائيل لا تملك استراتيجية سياسية لإنهاء المعارك على أيّ جبهة، ولم تضع تصوراً لليوم التالي في أيّ من هذه الجبهات، بهذا المعنى فإن غياب التصور السياسي الواضح لنهاية المعارك، ونشوة الإنجازات، كما يدعي العديد من الباحثين في معهد دراسات الأمن القومي في جامعة تل أبيب، يمكن أن يلحق ضرراً بالإنجازات العسكرية، التي حققها الجيش الإسرائيلي لغاية الآن، على جبهات قطاع غزّة ولبنان وإيران، كما قد يدخل إسرائيل في حرب استنزاف طويلة الأمد.

ربط الجبهات، الذي بادرت إليه إسرائيل بنفسها، وعلى عكس ادعاءاتها وموقفها في بداية الحرب، بهدف تحقيق تغيير استراتيجي شامل في حالة ومكان إسرائيل، يمكن أن يأتي بعكس أهدافه، ويؤدي إلى عدم الحسم الواضح في أيّ من الجبهات، وتوريط إسرائيل في حرب استنزاف طويلة ستؤدي إلى تآكل الإنجازات العسكرية، ويدفعها إلى ترتيبات سياسية لا ترغب بها بالضرورة. في الواقع الحالي، جبهة غزة تنتظر الحسم على جبهة لبنان، وجبهة لبنان تنتظر التطورات على جبهة إيران، وجبهة إيران متغير مجهول لا يمكن التكهن بنتائجه.

تظاهرة داعمة للفلسطينيين في سيدني لحث اغتيال رئيس حركة حماس إسماعيل هنية (سعيد خان/فرانس برس)

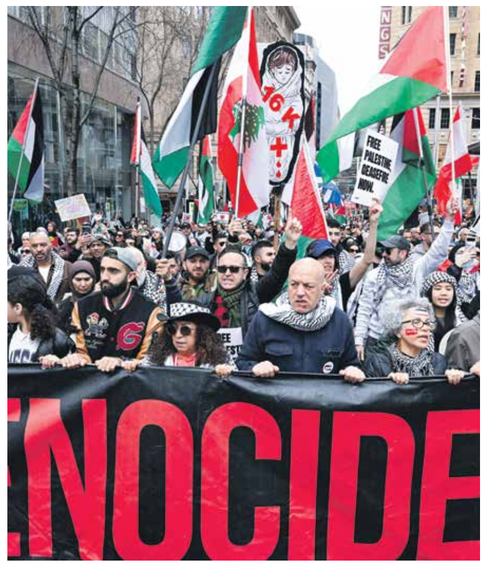

النزعة الطائفية وقوداً للإبادة الجماعية

التحالفات بين الاستراتيجي والمرحلي

بما ان إيران، التي تسعى قبل اي شيء آخر إلى تحقيق مصالحها، شأنها في ذلك شأن اي دولة في العالم، تدعم فصائل المقاومة الفلسطينية، فان التحالف المرحلي معها في سياق مواجهة «إسرائيل» ضرورة لا يمكن إنكارها

تامر خرمه

الضربة النوعية الموجعة حقاً، التي تمكنت دولة الاحتلال الصهيوني من تسديدها في صدر حركة المقاومة الوطنية الفلسطينية، وحملات التضامن معها على المستويين الإقليمي والدولي، لا تتمثّل في تصفية أبرز قادة حركة حماس، الشهيدين إسماعيل هنية ويحيى السنوار، وأهم قادة حزب الله اللبناني، وفي مقدمتهم الشهيد حسن نصر الله، بل تمثّلت الضربة الأكثر تأثيراً في ما حققه ذباب العدو الإلكتروني عبر وسائل التواصل الاجتماعي من تأجيج للعداوة الطائفية، التي هيمنت على كثير من أبناء الوطن العربي الممتد من بحر الظلمات إلى خليج المحروقات.

كثيرون، مع الأسف، عبروا صراحة عن فرحتهم باستشهاد حسن نصر الله على يد العدو الصهيوني، مبررين شماتتهم بما اقترفه زعيم حزب الله من أخطاء عند تدخله في سياق ثورة الشعب السوري ضد نظام الأسد الدموي. كما أن آخرين، ومنهم من يزعم أنه كان فاعلا خلال الثورة الشعبية السورية، عبروا عن شماتتهم باستشهاد الزعيم الحمساوي، يحيى السنوار أيضاً، بذريعة تحالفه مع إلى جانب العدو الصهيوني، وأمعنت في المضي بمشاريع التطبيع معه. بالنسبة لحماس، تلك الحركة الوطنية الفلسطينية، لم يكن هناك مناص من التحالف مع إيران، وحليفها حزب الله، نظراً لأنهما وحدهما من يقارع الاحتلال، ويرفض وجوده المحض.

التحالف الفلسطيني مع إيران هو ببساطة تحالف مرحلي في مواجهة وجود الاحتلال الصهيوني، لكن بالطبع لا يمكن اعتباره تحالفاً استراتيجياً، لأن ثورة الشعب الفلسطيني، بكل بساطة، هي جزءٌ من حركات التحرر العربية، ضدّ الصهيونية والإمبريالية، وكذلك الرجعية المتمثلة في الأنظمة الحاكمة، وبما أن طهران لا تزال تسعى إلى فرض نفوذها القومي على المنطقة العربية، وخصوصاً في سورية ولبنان والعراق، فإن آفاق التحالف الاستراتيجي معها معدوم تماماً، لكن، مجدداً، هذا لا يلغي ضرورة التحالف المرحلي مع هذه القوّة الإقليمية المؤثرة في مواجهة «إسرائيل».

أما بالنسبة لحزب الله اللبناني، الذي يعتقد كثيرون أنه مجرد ذراع لإيران في المنطقة، فهو حزب لبناني أصيل، يعبر عن مصالح نحو ثلث الشعب اللبناني، من أبناء الطائفة الشيعية. في هذا الصدد يقول الناشط الأممي، عضو حزب العمال الاشتراكي الموحد في البرازيل، فابيو بوسكو: «حزب الله ليس منظمةً إرهابيةً كما تروج إسرائيل ودول الإمبريالية الغربية. لكنه أيضا ليس حزباً ثورياً (بالمفهوم الماركسي)، إنه حزب سياسي برجوازي متجذر بعمق في النظام الطائفي اللبناني، وهو الممثل الرئيسي للطائفة الشيعية. كما أنه ليس مجرد ذراع إيرانية في لبنان، فهو حزب سياسي لبناني مرتبط بمصالح البرجوازية الشيعية اللبنانية، لكنه أيضاً حليف مهم للنظام الإيراني». ارتباط حزب الله اللبناني بالنظام الإيراني قائم على أساس تحالف عقائدي استراتيجي، لكن تحالف المقاومة الوطنية الفلسطينية مع هذه الكتلة المناهضة لدولة الاحتلال هو تحالف مرحلي بنحصر تحديدا في حدود تحشيد ما أمكن من قوى لهزيمة الاحتلال عسكريا ومن ثم وجوديا.

لكن الحليف الاستراتيجي لثورة الشعب الفلسطيني هو امتداده العربي الشعبي، الرازح مع الأسف تحت وطأة أنظمة رجعية، ضمان بقائها الوحيد هو تحالفها مع الإمبريالية والصهيونية. لذا، لا بدّ من الأخذ بعين الاعتبار بأن أيّة انتفاضة شعبية عربية في وجه أيّ نظام حاكم في المنطقة، هي في نهاية المطاف في صالح الثورة الفلسطينية المستمرة.

مثّل «طوفان الأقصى» المنعطف الأكثر أهمّية في تاريخ النضال الوطني الفلسطيني ضدّ الاحتلال الاستيطاني، وأعادت تداعياتها الاعتبار للقضية الفلسطينية على الساحة الدولية، وأججت مشاعر التعاطف الأممي مع هذه القضية، الأكثر عدالة في تاريخ الإنسانية الحديث، ولا سيّما في الأوساط اليسارية، المختلفة عقائدياً مع فكر حركة حماس المكون على أسس دينية، بيد أن هذا التناقض الأيديولوجي لم يمنع تلك القوى اليسارية الأممية من الاصطفاف في خندق حماس، لمواجهة المشروع الصهيوني- الإمبريالي.

كتبت البروفيسورة بلانكا ميسي، أستاذة مشاركة في قسم اللغات والآداب الحديثة بجامعة ولاية سان فرانسيسكو بالولايات المتّحدة، في مقالة نشرتها على منصة شبكة صوت العمال: «يتعين على اليسار أن يدافع عن الاستراتيجية السياسية الفعالة الوحيدة: بناء مسار طبقي مستقل من أجل صياغة التضامن بين المستغلين والمضطهدين داخل وخارج كل بلد. إن مهمة الثوار في هذه الحقبة الإمبريالية تتلخص على وجه التحديد في فك رموز الصراعات التي لا حصر لها، وتحديد الديناميكيات الطبقية الداخلية لكل صراع، والدفع بمبادرات ومنصات النضال المشترك القادرة على تحدي وهزيمة التوليفات الإمبريالية. فقط عبر هذا النهج الأممي المتسق يمكن بناء التضامن الطبقي على نطاق أممي عملياً، وتحقيق تحررنا الجماعي». التحرر الجماعي للشعوب الرازحة تحت وطأة الاضطهاد الإمبريالي كلّها، المتمثل في الاحتلال الصهيوني في منطقتنا العربية، يستوجب بناء أوسع شبكة من التحالفات القائمة على التناحر مع وجود الاحتلال. هذه التحالفات لا يشترط أن تكون دائمة على البعد الاستراتيجي، لكن لا بدّ من إدراك أهمّيتها من أجل تحرير فلسطين من النهر إلى البحر.

> التحالف الفلسطيني مع إيران هو ببساطة تحالف مرحلي في مواجهة وجود الاحتلال

صاروخ «الفتح» أول صاروخ إيراني يفوق سرعة الصوت (مرتضى نيكوبازل/ Getty)

سورية ومصطلح وحدة الساحات

خلال السنوات من 2017 إلى 2024، جرى الترويج لمصطلح وحدة الساحات، عبر الناطق الرسمي، والذراع الإقليمي للمحور، أمين عام حزب الله السابق حسن نصر الله، وكان معنى المصطلح واضحاً، ودائم التكرار، وتضمن الاستعداد للاشتباك المباشر مع الاحتلال

ماجد عزام

منذ بداية الحرب الإسرائيلية على قطاع غزّة أخرج بشار الأسد نفسه، ونظامه، من دائرة مصطلح وحدة الساحات، وبالتالي ترك حركة حماس وقطاع غزّة وحيدين أمام آلة القتل والإبادة الإسرائيلية، كما استمر هذا الأمر حتّى بعدما بات حليفه الأقرب، الذي ساهم في إبقاء النظام بالسلطة لسنوات قبل التدخل الروسي، أي حزب الله، تحت النار الفعلية في لبنان وسورية نفسها. ليس ذلك فحسب، بل بدت المفارقة، أو السوريالية بالأحرى، بأنّ إسرائيل نفسها هي التي بادرت إلى التطبيق الفعلي والحقيقي لمفهوم وحدة الساحات، وليس الأسد، كما روج ويروج منظروه وحلفاؤه في ضاحية بيروت الجنوبية، وفي طهران.

بدايةً، لا بدّ من التذكير بالسياق التاريخي والفكري، مجازاً، لمصطلح وحدة الساحات، إثر مغادرة حزب الله، في العام 2000، لمربع المقاومة التقليدي، بعدما حصرها في إطار طائفي، وانتقاله إلى بناء جيش، بالمعنى الحقيقي للكلمة، وتزوده بأسلحة ثقيلة واستراتيجية، وهيمنته على الدولة اللبنانية. في السياق ذاته، عمل الحزب ذراعاً إقليمياً مركزياً في خدمة السياسات الإيرانية التوسعية في المنطقة العربية، التي تباهت بتأسيس إمبراطورية فارسية، عاصمتها بغداد، من ذلك كلّه أضحى الحزب بمثابة الجيش، والذراع العسكرية، للإمبراطورية المزعومة في المنطقة/ الدول العربية.

تدخل حزب الله في سورية من أجل إنقاذ نظام الأسد من السقوط الحتمي، حتّى قبل ظهور داعش زريعةً، وقبل عجزه عن إنجاز المهمة، التي تبعها الاستنجاد بروسيا لفعل ذلك، مثّل تمدداً لحزب الله وفق مقولة «نكون حيث يجب أن نكون»، بعيداً عن الشرعية اللبنانية ومؤسساتها الدستورية، وتحت الراية الإيرانية، والتغطية الأجنبية الأميركية في العراق، والروسية في سورية.

حينها أرسل الحزب مقاتليه وقادته إلى سورية والعراق واليمن، ما جعله مخترقاً ومكشوفاً أمام الاستخبارات الإسرائيلية، وبالتبعية إحكام قبضته أكثر على الدولة اللبنانية الفاشلة ومؤسساتها، وقمع الانتفاضة الشبابية الشعبية، فارضاً هيمنةً تامةً على البلد والسلطات كلّها فيها، عبر ترغيبه للقوى السياسية والحزبية هناك وترهيبها. ثمّ ومن أجل التغطية على ممارسات إيران وأذرعها في لبنان وسورية والعراق واليمن كلّها، ابتدع مقولة «محور المقاومة» الساعي إلى مواجهة السياسات الإسرائيلية والأميركية، والدفاع عن القضية الفلسطينية. في هذا السياق جرى تبرير الدفاع عن الأسد ونظامه ومنع سقوطه، على اعتباره ركناً أساسياً في محور المقاومة، وفي مشروع تحرير فلسطين. غير أن القطيعة مع حماس خلال تلك الفترة، من 2011 إلى 2017، جعلت من الصعوبة بمكان الادعاء أن المحور غير طائفي، وأنه مقاوم في غياب حركة المقاومة الأكبر في فلسطين، أي حركة حماس، التي عادت مهولةً إلى المحور بعد ذلك، بمزيج من الخفة والسذاجة، بما في ذلك قبولها بالعودة المهينة إلى نظام الأسد في سورية، وتبييض صفحته، وصفحة المحور كلّه، بأثر رجعي، وبالتالي نزع الطابع الطائفي عنه، وإضفاء الطابع المقاوم عليه.

بعد ذلك، وخلال السنوات السبع اللاحقة، من 2017 إلى 2024، جرى الترويج لمصطلح محور الساحات، عبر الناطق الرسمي، والذراع الإقليمي للمحور، أمين عام حزب الله السابق حسن نصر الله، وكان معنى المصطلح واضحاً، ودائم التكرار، وتضمن الاستعداد للاشتباك المباشر مع الاحتلال، والزعم أنّ أي حرب قادمة بين إسرائيل وأي عضو من أعضاء محور المقاومة، يمن فيهم حماس، سينخرط بها أعضاء المحور كافة، بغرض الوصول إلى تحرير فلسطين، وهزيمة إسرائيل، بعدما باتت ضعيفة ومستنزفة ومعزولة، خصوصاً مع الخلاف والاستقطاب الداخلي الحاد فيها حول خطة الإصلاح/ الانقلاب القضائي، وتزايد دعوات رفض خدمة الاحتياط، تحديداً في قدس أقداس المؤسسة العسكرية، أي في سلاح الجو، وجهاز الاستخبارات بوحداته المختلفة. لم يتوقف هذا التنظير من قبل نصر الله والحشد الشعبي الإعلامي التابع له لسنوات طويلة، حتّى صدقته حركة حماس، ثمّ عندما عرضت فكرة «طوفان الأقصى» على الحزب وإيران لم يرفضاها مع إبداء الاستعداد المبدئي لدعمها، وعليه فهمت حماس أن المحور سيدعمها، ولن يتركها وحيدةً في الميدان، وهو ما اتضح جلياً من كلمة رئيس أركان الحركة محمد الضيف عند الإعلان عن الطوفان، صبيحة السابع من أكتوبر/ تشرين الأول من العام الماضي. في صباح اليوم نفسه، وقبل تنفيذ العملية، أرسل قائد حركة حماس في قطاع غزّة يحيى السنوار نائبه صالح العاروري إلى حسن نصر الله لإبلاغه بساعة الصفر، التي كان باجوائها نظرياً، طالباً منه تفعيل وحدة الساحات كما جرى التنظير له، خصوصاً مع التباهي بوجود خطة «احتلال» تحرير الجليل من قبل وحدة الرضوان التابعة للحزب. ثمّ بعد أسبوع من العملية، عاد إليه العاروري حاملاً رسالة عتب من السنوار، وتساؤل عن أسباب عدم تنفيذ المصطلح كما جرى التنظير له من كلّ الساحات، تحديداً من دول الطوق الأقرب لفلسطين لبنان وسورية، اعتقدت حماس أنّ اشتعال الجبهات كلّها سيمنع إسرائيل من التنكيل بقطاع غزّة والاستفراد به، كما سيجعل التوصل إلى صفقة وقف إطلاق النار وتبادل الأسرى ممكناً وسريعاً، مع صُور نصر لحماس بالطوفان، كما بخروج آلاف الأسرى، وتنظيف السجون، وفق قاعدة الكلّ مقابل الكلّ، خاصّة كبار القادة منهم، وتكريس قدرة المحور على تحرير فلسطين وهزيمة إسرائيل وإزالتها من الوجود. بعد إعلان الحزب عن الاكتفاء بجبهة المساندة والمشاغلة، طوال أكتوبر/ تشرين الأول من العام الماضي، حماس عن ترحيبهم بذلك واعتباره غير كاف، قبل أن يطلب المرشد الإيراني علي خامنئي من إسماعيل هنية إسكات الأصوات المطالبة بتدخل فعلي لإيران وأذرعها في المعركة، وذلك في لقاء بطهران في نهاية الشهر نفسه.

الشاهد إننا بتنا أمام جبهة مساندة، ذات طابع استعراضي من لبنان، لا تسمن ولا تغني من جوع، خصوصاً مع تحييد سورية والعراق وإيران عن محور وحدة الساحات نفسه، بحجة أن ظروفها لا تسمح بالانخراط الفعلي، كما قال حسن نصر الله في خطابه إثر اغتيال المسؤول العسكري للحزب فؤاد شكر في ضاحية بيروت الجنوبية، نهاية يوليو/ تموز الماضي. وبالعودة إلى الجبهة السورية، حيث وجهت إسرائيل تحذيراً صارماً للأسد، في أكتوبر/ تشرين الأول 2023، بعدم الانخراط بالحرب أو فتح جبهة الجولان أمام حزب الله والأذرع الإيرانية، على افتراض أنّهم يريدون ذلك فعلاً، وإلّا ستوجه له ضربات قاصمة قد تؤدي إلى إسقاطه من السلطة. علماً أنّ التحذير نفسه قد وصل بطرق مختلفة إلى إيران والحزب، باعتبار الأسد ذخراً وعموداً فقرياً في الإمبراطورية الفارسية التي تحتل أربع دول عربية.

وبتفصيل أكثر، قالت تل أبيب للأسد إنّها ستكون في حِلّ من التفاهم الذي توصلوا إليه مع روسيا، بعد تدخلها لحماية الأسد، ومنع سقوطه أمام ضربات المعارضة، في سبتمبر/ أيلول 2015، ومفاده ضمان تحييد الأسد، ومظاهر سلطته وسيادته عن أيّ ضربات وهجمات إسرائيلية ضدّ التموضع الإيراني، لا الوجود بحدّ ذاته في سورية. التزمت إسرائيل خلال هذه السنوات بالتفاهم مع روسيا، خصوصاً مع وجود خط ساخن بين رئاسة أركان الاحتلال «الكرياه» في تل أبيب، والقاعدة الروسية «حميميم» في اللاذقية، خلال الأعوام التسعة الماضية، واصلت إسرائيل توجيه الضربات ضدّ إيران وأذرعها في سورية والعراق واليمن، بل وحتّى في طهران نفسها، كما اشتدت أكثر ضدّ لبنان خلال العام الأخير، إذ لم يفهم الحزب أو يقرأ نصر الله الواقع جيداً، المتمثل في قيام إسرائيل بفعل ما لم يفعله هو وحلفاؤه، أي التطبيق الفعلي لمبدأ وحدة الساحات، حتّى بعد انطلاق الحرب البرية، أو للدقة الانتقال إلى مرحلة أخرى من الحرب الإسرائيلية ضدّ حزب الله في لبنان، واستغلال الوقائع المستجدة لتوجيه ضربة قاصمة له، ولأسلحته الاستراتيجية، وتركيبته القيادية والسياسية والعسكرية، لم يتم تفعيل وحدة الساحات على طول المنطقة وعرضها، بما في ذلك في سورية نفسها، كما نظّر لها حسن نصر الله لسنوات، لكنه عجز هو وحلفاؤه عن المحور عن فعل ذلك جدياً، في فلسطين، وحتّى في لبنان أيضاً، حيث ترك الحزب نفسه وحيداً أمام آلة الدمار والقتل الإسرائيلية المنفلتة.

جهة أخرى إكمال محاصرته في لبنان، من الجنوب فلسطين، والغرب البحر الأبيض المتوسط، والشرق هضبة الجولان، رغم كلّه لم يحرك الأسد ساكناً، ولم يطلق رصاصةً، ولا حتّى كلمةً واحدةً، بل سحب قواته المنتشرة في المنطقة المحررة من الجولان إلى الوراء، كما ضيق على مقرات حزب الله ومعسكراته في سورية، خصوصاً في دمشق ومحيطها، وحذره من مجرد التفكير في الرد على الجرائم الإسرائيلية في لبنان عبر الأراضي السورية. هنا لا بدّ من التذكير باتهامات إيران والحزب لبشار الأسد وأجهزته الأمنية بتقديم المعلومات والتفاصيل عن أماكن انتشارهم وتحركاتهم لتسهيل استهدافهم من قبل إسرائيل خلال الشهور والسنوات الماضية. في الأخير باختصار وتركيز، وفي ضوء التخلي عن قطاع غزّة وتركه وحيداً أمام جرائم الإبادة الإسرائيلية، بدت تل أبيب، في ما يشبه المساءلة، وكأنّها تطبق فعلياً مصطلح وحدة الساحات على طول المنطقة وعرضها، بما في ذلك في سورية نفسها، كما نظّر لها حسن نصر الله لسنوات، لكنه عجز هو وحلفاؤه عن المحور عن فعل ذلك جدياً، في فلسطين، وحتّى في لبنان أيضاً، حيث ترك الحزب نفسه وحيداً أمام آلة الدمار والقتل الإسرائيلية المنفلتة.

من التظاهرات المناصرة لفلسطين في محافظة إدلب، شمال غربي سورية (عمر الحاج قدور/فرانس برس)

> في أكتوبر الجاري سحب الأسد فواته من المنطقة المحررة في الجولان

فلسطين والجمعية العامة: الأبعاد والطموح

ناصر عدنان ثابت

جلس مندوب فلسطين الدائم لدى الأمم المتحدة، رياض منصور، في لحظة تاريخية على المقعد الرسمي الجديد لفلسطين في الجمعية العامة للأمم المتّحدة، حسب الترتيب الأبجدي للدول الأعضاء، ووُضعت أمامه لافتة كتب عليها «دولة فلسطين». فقد كانت البعثة الفلسطينية قبل هذه الحالة الجديدة بعثة مراقبة، تجلس خلف الدبلوماسيين الخاصين بالدول الأعضاء.

سياق القرار

عَقدت الجمعية العامة في 9 مايو/أيّار الماضي جلستها الاستثنائية الطارئة العاشرة، تضمّن جدول أعمالها البند رقم 5 المتعلق بـ«الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة»؛ كما وضع على أجندة الجلسة التصويت على الطلب المُقدم من مجموعة من الدول العربية، وغيرها من الدول، حول قبول أعضاء جدد في الأمم المتحدة. وعليه، صوتت الأغلبية الساحقة من أعضاء الجمعية العامة لصالح منح فلسطين العضوية الكاملة في الأمم المتحدة، وأصدرت الجمعية قراراً يمنح دولة فلسطين حقوقاً إضافية داخل الجمعية العامة، كما اعتبر القرار سارياً منذ انطلاق أعمال الدورة السنوية التاسعة والسبعين للجمعية العامة في الأمم المتحدة. إن القرار السابق الإشارة إليه، الذي اتخذته الجمعية العامة للأمم المتّحدة في جلستها الاستثنائية الطارئة، على ضوء دعم الطلب الفلسطيني المقدم بالحصول على العضوية الكاملة في هيئة الأمم المتحدة، المُقدم في 8 إبريل/نيسان 2024، إلى جانب فشل تمرير مشروع القرار الجزائري المُقدم داخل مجلس الأمن مباشرة، في 18 إبريل 2024، الذي يوصي بمنح فلسطين دولة كاملة العضوية في الأمم المتحدة، حينها صوّت لصالح القرار اثنا عشر عضواً من بين أعضاء المجلس الخمسة عشر، وعارضته الولايات المتّحدة، وامتنعت المملكة المتحدة وسويسرا عن التصويت، ولأن الولايات المتّحدة من الدول الخمس الدائمة العضوية، فإن معارضتها في هذه الحالة تعد استخداماً لما يُعرف بحقّ النقض «الفيتو»، الذي حال دون اعتماد مشروع القرار، رغم تصويت غالبية أعضاء المجلس لصالحه. من الجدير ذكره هنا، أنّ مساعي الدبلوماسية الفلسطينية كانت تطمح دائماً للحصول على العضوية الكاملة في هيئة الأمم المتحدة، لكن قوبلت هذه المساعي بالكثير من العقبات، حتى جرى التصويت على منح فلسطين مقعداً غير عضو، بصفة المراقب في الأمم المتحدة. وحصلت على هذا الوضع بعد قرار اعتمدته الجمعية العامة بأغلبية كبيرة في 29 نوفمبر/تشرين الثاني 2012، حينها صدر القرار بتأييد 138 دولة، ومعارضة تسع دول، وامتناع 41 عن التصويت، ما زالت هذه المساعي متجددة بالطلب الأخير المجدد لمطلب الحصول على العضوية الكاملة، الذي لم يبت فيه حتى تاريخ تحرير المقالة.

كيف تقبل الأمم المتحدة عضوية دولة جديدة؟

وفقاً للنُظم الضابطة لعمل هيئات الأمم المتحدة، على الدول الساعية للانضمام إلى الأمم المتحدة تقديم طلب إلى الأمين العام، الذي يرسله بدوره إلى مجلس الأمن لتقييمه والتصويت عليه، لمجلس الأمن لجنة خاصة بقبول الأعضاء الجدد، مكونة من أفراد ينتمون للدول الأعضاء بالأمم المتحدة. بداية تقوم اللجنة بتقييم الطلب، للتأكد من استيفائه متطلبات عضوية الأمم المتحدة، من خلال جلسة واحدة أو جلسات عدّة، ثم تقرر اللجنة إما تأجيل الطلب أو طرحه للتصويت الرسمي في مجلس الأمن. ويتوجب الإشارة إلى أن النظام الناظم لعمل هذه اللجنة يتطلب موافقة تسعة أصوات مؤيدة على الأقل، وعدم استخدام أي من الأعضاء الدائمين حق النقض «الفيتو». بعد انتهاء مجلس الأمن من الإجراءات الداخلية، للموافقة على طلب انضمام عضو جديد، ينتقل الطلب إلى الجمعية العامة للموافقة عليه، هنا يحتاج طلب العضوية إلى أغلبية الثلثين حتّى يحظى بموافقة الجمعية العامة، أي لا يمكن لأي دولة الانضمام إلى الأمم المتحدة إلّا بموافقة مجلس الأمن والجمعية العامة.

جديد وضع فلسطين القانوني

تتمتع دولة فلسطين منذ انضمامها للأمم المتّحدة بصفة المراقب غير العضو، إذ يحقّ لها بموجب هذه الحالة المشاركة في جلساتها، والتحدث في الجمعية العامة للأمم المتّحدة، والمشاركة في اجتماعات المنظمة المختلفة، من دون أن يكون لها حقّ التصويت على القرارات. كما يحقّ لها تقديم المقترحات والتعديلات، والمشاركة في النقاشات، والجلوس في قاعة الجمعية العامة بعد الدول الأعضاء مباشرة؛ كما يحقّ لها الانضمام للاتّفاقيات الدولية، ومنها نظام روما. تمنح حالة فلسطين الجديدة، دولة ذات مقعد رسمي، مجموعة من الحقوق والامتيازات الإضافية، مثل: الحقّ في الجلوس مع الدول الأعضاء حسب الترتيب الأبجدي، والحقّ في تقديم، والمشاركة في تقديم، مقترحات وتعديلات وعرضها، بما في ذلك باسم مجموعة ما، والحقّ في تقديم تعديلات للتصويت باسم الدول الأعضاء في مجموعة ما، وحقّ الرد في ما يتعلق بمواقف مجموعة ما، والحقّ في أن يُنتخب أعضاء وفد دولة فلسطين لعضوية مكتب الجمعية العامة، ومكاتب اللجان الرئيسية التابعة لها. لكن أبقى القرار على عدم قدرة فلسطين على التصويت في الجمعية العامة، أو على أن تترشح لأجهزة الأمم المتحدة.

ما أبعاد الوضع الجديد على حالة الفاعلية الفلسطينية في الساحة الدولية؟

لقد قرب الوضع الجديد، «المقعد الرسمي» الممنوح لفلسطين، من حالة الدولة والعضوية الكاملة في هيئة الأمم المتحدة، وجدد الأمل بذلك. سوف تمكن هذه الحالة فلسطين من تقديم مقترحات ومشاريع أمام الجمعية العامة، أو تقديم أبناء فلسطين لرئاسة وعضوية مكاتب الجمعية العامة، ومكاتب اللجان الرئيسية التابعة لها. الأمر الذي ينعكس على رفع مستوى المشاركة الدبلوماسية لفلسطين، ويساهم في المشاركة في صياغة الإرادة الدولية بشأن معالجة القضايا العالمية، التي تمس الأمن والسلم الدوليين. لكن، وبالرغم من هذه الامتيازات، سوف تبقى كيانية فلسطين منقوصة وقائمة على مرتكزات خارجية، وبحاجة لمساحة واسعة من الإسناد الدولي في مواجهة تحدياتها، فبدون عضوية كاملة في الأمم المتحدة سوف تبقى فلسطين غير قادرة مباشرة على تحريك دعاوى قضائية في مواجهة سلطات الاحتلال الحربي الإسرائيلي أمام محكمة العدل الدولية. إلى جانب، الترشح لعضوية مجلس الأمن الهيئة الأهم في هيئة الأمم المتحدة. وتجدر الإشارة إلى أن فلسطين تنتظر رد مجلس الأمن حول طلبها المقدم بخصوص الحصول على العضوية الكاملة في الأمم المتحدة، والذي لا نتوقع الكثير من الإيجابية في الرد عليه، لأن التوجهات السياسية الأميركية الحالية لا تدعم عضوية فلسطين في الأمم المتحدة، بالرغم من الإرادة الدولية التي أظهرتها حول هذا الأمر في مايو/أيار الماضي. ولهذا نتوقع أنه لن يسمح للقرار بالمرور عبر مجلس الأمن، سواء من خلال لجنة خاصة بقبول الأعضاء الجدد، أو عبر التصويت العام لأعضاء المجلس.

متظاهرون يرفعون العلم الفلسطيني في محيط مقر الأمم المتحدة في مدينة نيويورك (كينا بيتانكور/ Getty)

النظام الإقليمي بعد حرب غزّة

لكن لن تكتمل المحصلة النهائية لتداعيات ارتقاء العامل الذاتي التحرري الفلسطيني في المعادلات الإقليمية والدولية قبل اتضاح مآلات خمس قضايا متداخلة

امجد أحمد جبريل

على الرغم من فداحة الخسائر في أرواح المدنيين الفلسطينيين، والدمار الهائل الذي لحق بقطاع غزّة وبنيته التحتية، نتيجة استمرار حرب الإبادة الإسرائيلية، أسفرت الحرب عن نتيجتين استراتيجيتين؛ إحداهما هي عودة قضية فلسطين، ولا سيّما مسألة الاعتراف بـ«الدولة الفلسطينية»، إلى الأجندتين الدولية والإقليمية. والأخرى العجز الأميركي- الإسرائيلي، بعد عام من الحرب، عن حسم الصراع ضدّ الشعب الفلسطيني، وفصائل المقاومة في قطاع غزّة والضفّة الغربية، وكذا مع أطراف المحور الإيراني. لكن لن تكتمل المحصلة النهائية لتداعيات ارتقاء العامل الذاتي التحرري الفلسطيني، وصمود المقاومة والمجتمع الفلسطينيَّين، في المعادلات الإقليمية والدولية قبل اتضاح مآلات خمس قضايا متداخلة، سوف تشكّل، ملامح النظام الإقليمي في الشرق الأوسط بعد الحرب، وموقع القضية الفلسطينية منه؛ أولاها الأفق النهائي لحلّ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وإمكانية العودة إلى إدارته أو تهدئته. ثانيها انعكاسات التوجّهات المستقبلية للمجتمع الإسرائيلي، ولا سيما انزياحه نحو أقصى اليمين الديني المتطرف، على السياسات الإسرائيلية تجاه قضية فلسطين، وإقليم الشرق الأوسط عموماً، نحو مسارَين؛ أحدهما التصعيد، عبر تكثيف استخدام أدوات الإكراه، بالتوازي مع أساليب «القوّة الناعمة»، بغية إضعاف الخصوم، عبر إذكاء انقساماتهم، خصوصاً الطائفية. المسار الآخر الذهاب نحو «تهدئات تكتيكية مؤقتة»، لتوفير ظروف أفضل تسمح بـ«حسم الصراع»، في المديين المتوسط والبعيد.

تتعلق القضية الثالثة بمدى قدرة إيران وإسماعيل هنية، في طهران، ثم اغتيال الأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله، أدّيا إلى تأجيج الانقسام السنّي الشيعي، وحرف البوصلة عن السياسات الإسرائيلية، وتوجيهها نحو محور التطبيع العربي والإقليمي مع إسرائيل، التي تزيد وزنها الإقليمي، وتمنحها درجةً من «الشرعية الإقليمية»، على حساب قضية فلسطين وحقوق شعبها خصوصاً، والشعوب العربية عموماً، ما يعني أن استمرار التطبيع ينطوي بالضرورة على تهميش الفاعلين من الحركات الاجتماعية، السياسية الشعبية، التي تتبنّى أجندات وطنية، في مواجهة أدوات الهيمنة الأميركية- الإسرائيلية.

رابعها استمرار الاستقطاب الإقليمي بين السنّي العربي، وبين سياسات إيران ومحورها الإقليمي المساند، على ضوء تداعيات حربيْ غزّة ولبنان، علماً بأن اغتيال إسرائيل لرئيس حركة حماس، إسماعيل هنية، في طهران، ثم اغتيال الأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله، أدّيا إلى تأجيج الانقسام السنّي الشيعي، وحرف البوصلة عن السياسات الإسرائيلية، وتوجيهها نحو محور إيران وسياساتها الطائفية في تفكيك المجتمعات العربية السنّية وإضعافها.

خامسها احتمال تغيّر سياسات القوى الدولية والإقليمية الأخرى، تجاه قضية فلسطين وإقليم الشرق الأوسط، ودرجة ابتعادها عن الاستراتيجية الأميركية، ومدى استعدادها لتحدي النفوذ الأميركي، خصوصاً مع استمرار واشنطن في دعم حروب إسرائيل العدوانية، وتعزيز سياسة إعادة رسم الخرائط الإقليمية، وتصميم الحلول والمبادرات على «قياس إسرائيل»، على نحو قد يهدّد مصالح القوى غير الغربية في المنطقة.

في هذا السياق، ثمة ثلاثة عوامل إضافية تتحكّم في درجة الاستمرارية أو التغيّر في النظام الإقليمي الشرق أوسطي، أولها مستوى نجاح قوى المقاومة في تعميق الخلافات الأميركية الإسرائيلية، حول سيناريوهات اليوم التالي للحربَين. وعلى الرغم من أن حماس وحزب الله، يخوضان، «حرب وجودهما»، وبواجهان تحديات هائلة، لكن بصعب الجزم بامتلاك إسرائيل القدرة على حسم الصراع، من دون إغفال النجاح الإسرائيلي «الآني» في اغتيال قيادات المقاومة.

استطراداً، قد يسفر نجاح قوى المقاومة الفلسطينية واللبنانية، في المحصلة الأخيرة، عن استعادة حالة من «الوحدة الوطنية»، و«التماسك الداخلي»، مروراً باحتمال تطوير المواجهات الراهنة إلى «حرب استنزاف إقليمية طويلة الأمد» ضدّ إسرائيل، ولا سيّما في حال النجاح في تحييد مواطن القوة الإسرائيلية، وتحصين مجتمعات المقاومة، وصولاً في النهاية إلى هزيمة الاحتلال بـ«مجموع النقاط المتراكمة»؛ إذ يتعذّر حسم الصراع معه «ضربة واحدة قاضية».

ثانيها نجاح واشنطن في ضبط مستوى الصراع الإسرائيلي مع إيران؛ أي منع انتقاله إلى صدام مباشر بين الطرفين، على نحو يأخذ الأقليم بأسره، إلى حلقات من التصعيد والفوضى والأزمات الاستراتيجية، ما قد يؤدي في المحصلة إلى «إفلات» الإقليم برمته من الهيمنة الأميركية.

ثالثها نجاح تركيا وإيران والسعودية ومصر، في وقف عملية تراجع أدوارها في إقليم الشرق الأوسط، لمصلحة تعزيز الدور الوظيفي لإسرائيل. وتجديد الهيمنة الأميركية، علماً بأن انفلات هذا الدور من الضوابط الأميركية- الغربية، بالتوازي مع استمرار إحجام القوى الدولية الأخرى، خصوصاً الصين وروسيا والهند، عن توظيف الفراغ الناجم عن تآكل سيطرة واشنطن على الإقليم، قد يفسح المجال لانتشار مستويات من «الفوضى الإقليمية»، التي قد تخرج عن أطر التحكّم الصارم، ما قد يفتح الباب أمام احتمال عودة الحركات والتنظيمات الراديكالية العنيفة والمتطرفة، واستنفاذ صراعها القديم- الجديد مع أجهزة الدول الوطنية، علماً بأن السيناريو الأفضل في هذا الصدد يتمثّل في عودة حراك الشارع العربي، بمستوى حراك جماهيري يحظى بالكتلة الحرجة اللازمة لإنداع موجة أخرى من الثورات الشعبية الوطنية، على نحو يسمح باستعادة وزن البعد الجماهيري بعد تهميشه لأكثر من عقد كامل.

يبقى القول إنّ عودة قضية فلسطين إلى التأثير في سياسات النظام الإقليمي الشرق أوسطي، قد تؤدي إلى تنويع/ توسيع علاقاته الدولية، وابتعاده تدريجياً عن هيمنة الفاعل الأميركي- الإسرائيلي. وعلى الرغم من قدرته على تسجيل «انتصارات تكتيكية»، لكنه عاجز عن الحسم ضدّ قوى المقاومة وإيران، ما يؤكّد طبيعة الصراع العربي الإسرائيلي، بوصفه «صراعاً سياسياً، اجتماعياً، ممتداً، متشعّباً في جوانبه»، ولا يخضع بالضرورة لأحكام ميزان القوى، قدر خضوعه لأحكام التاريخ في تجارب التحرر الوطني، في مواجهة القوى الاستعمارية الغازية.

من التظاهرات الداعمة للفلسطينيين في الأردن (إياد الجنيدي/الأناضول)

إعادة بناء وعي جمعي فلسطيني تحرري

الرد الإيراني وعودة العمق الإقليمي

أظهرت تلك الليلة أنّ إسرائيل قد تصبح عبئاً على الولايات المتّحدة، والدول الغربية مستقبلاً، نظراً لأنّ العلاقة بينهما قد أصبحت معكوسةً، فبدلاً من أن تحمي إسرائيل المصالح الأميركية والغربية في المنطقة، باتت الولايات المتّحدة والدول الغربية هي من تحميها

عادل شديد

كشفت ليلة الصواريخ الإيرانية على إسرائيل عن مدى اعتماد الأخيرة على الآخرين، وتحديداً على الولايات المتّحدة، ليس في الدعم السياسي والمادي والعسكري فقط، إنّما في الدفاع عن أمنها الذاتي أيضاً، عبر نصب منظومات دفاع جوي عدّة في المنطقة، لمنع وصول الصواريخ الإيرانية صوب إسرائيل، التي فشلت فشلاً كبيراً.

أظهرت تلك الليلة أنّ إسرائيل قد تُصبح عبئاً على الولايات المتّحدة، والدول الغربية مستقبلاً، نظراً لأنّ العلاقة بينهما قد أصبحت معكوسةً، فبدلاً من أن تحمي إسرائيل المصالح الأميركية والغربية في المنطقة، باتت الولايات المتّحدة والدول الغربية هي من تحميها. إذ كان النقاش يدور سابقاً حول تعريف إسرائيل بأنّها «حاملة طائرات أميركية متقدمة في المنطقة، لحماية المشروع الغربي الاستعماري»، حتّى كانت أحداث «طوفان الأقصى»، بعد السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2023، وحالة الإرباك التي رافقتها، وانهيار قوّة الردع الإسرائيلية، التي دفعت الولايات المتّحدة إلى إحضار حاملات طائرات ومدمرات وسفن حربية عدّة للشرق الأوسط لحماية إسرائيل، ما ورط الولايات المتّحدة في مواجهة مع أنصار الله (الحوثيين) في البحر الأحمر، التي أدت بدورها إلى إحراج الولايات المتّحدة وضرب هيبتها، نظراً إلى عدم قدرة أميركا على حماية قواتها في البحر الأحمر.

أحدث قصف إيران للمواقع الإسرائيلية، فـي لـيـلـة الأول من أكتوبر، إرباكاً للمشروع الأميركي في المنطقة، إذ شكلت تلك الصواريخ إحراجاً للدول العربية الصامتة أو المتواطئة تجاه القضية الفلسطينية عامة، وقطاع غزّة خاصّةً، ففي الوقت الذي فشلت/ تقاعست فيه عن حماية غزّة من الإبادة الجماعية، التي تتعرض لها، فضلاً عن عدم قدرتها، أو عدم نيتها، على تقديم المساعدات الإنسانية للقطاع، قصفت إيران إسرائيل، وفي الوقت ذاته؛ ما زالت الإدارة الأميركية تعمل ليلاً نهاراً من أجل إتمام صفقات التطبيع، بين دولة الاحتلال الإسرائيلي وبعض الأنظمة العربية، على اعتبارها جزءاً من استراتيجية الولايات المتّحدة للرد على «طوفان الأقصى»، إذ ادّعى الرئيس الأميركي، جو بايدن، في اليوم الأول لطوفان الأقصى أن «أفضل مساعي التطبيع بين المملكة العربية السعودية ودولة الاحتلال» من بين الأسباب التي دفعت حركة حماس، وقائدها الشهيد يحيى السنوار، إلى تنفيذ عملية السابع من أكتوبر، لذا وعدت الولايات المتّحدة، في حينها، بالرد على حماس والسنوار عبر الاستمرار في دفع مساعي التطبيع حتّى تحقيقه، وإفشال ما تسميه الولايات المتّحدة، مخطط إيران وحلفائها في المنطقة، الساعي إلى ضرب العلاقات الإسرائيلية مع العرب، ومنع نجاح مشروع الشرق الأوسط الجديد، بقيادة دولة الاحتلال، بعد تصفية القضية الفلسطينية نهائياً، وضرب قوى المقاومة كلّها في المنطقة، التي ترفض مشروع الهيمنة الأميركية والإسرائيلية. أضافت ليلة الصواريخ الإيرانية بعداً جديداً يتمثّل في ضرب سردية الاحتلال، بأن إسرائيل هي المكان الأكثر أمناً ليهود العالم، إذ أدت الصواريخ الإيرانية إلى فقدان الإسرائيليين لإحساسهم بالأمن الفردي، كما الأمن الجماعي، حين اضطرت إسرائيل كلّها إلى النزول إلى الملاجئ، في مقابل ذلك أثلج ذلك الخوف، الذي أصاب الإسرائيليين، صدور الفلسطينيين، وأدخل الفرحة إلى قلوب الملايين، الذين كانوا ينتظرون أي موقف من أيّ دولة عربية كانت، إلى أن أتى الرد الإيراني، وإن كان جزءاً كبيراً منه رداً على جملة كبيرة من الإهانات والاعتداءات والاستفزازات، التي قامت بها إسرائيل ضدّ إيران.

كان القصف الإيراني، في مساء الأول من أكتوبر 2024 ردّاً على اغتيال رئيس المكتب السياسي السابق لحركة حماس، الأستاذ الشهيد إسماعيل هنية، في نهاية يوليو/ تموز الماضي في طهران، وعلى اغتيال الأمين العام لحزب الله الشهيد حسن نصر الله، في نهاية سبتمبر/ أيلول الماضي، إضافة إلى الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على منشآت وشخصيات إيرانية في سوريا والعراق، كما جاء الرد الإيراني في خضم نقاش فلسطيني وعربي وإقليمي ودولي، حول مدى جدية إيران في الرد المباشر، ومن أراضيها على إسرائيل، أو عبر الاستمرار بما يسمى بالحرب غير المباشرة، عبر حلفاء إيران وشركائها في المنطقة، حزب الله اللبناني، وجماعة أنصار الله الحوثي في اليمن، والفصائل العراقية موالية لإيران، إذ يدّعي خصوم إيران في المنطقة أنّ إيران لن تضحي بمصالحها، ولن تواجه إسرائيل من أجل فلسطين، والقضايا العربية، إنّما ستستخدم العرب لخدمة مشروعها ومصالحها في المنطقة، إلّا أنّ الرد الإيراني النوعي، والكبير والمفاجئ، الذي لم يسبق أن قام بمثله جيش عربي، من بداية المشروع الصهيوني وإقامة الكيان الإسرائيلي عام 1948، قد طاول مواقع ومنشآت استراتيجية حساسة في عمق إسرائيل.

إفشال مخططات تهميش القضية الفلسطينية وتصفيتها

مثّلت الصواريخ الإيرانية، من وجهة نظر فلسطينية، محطة مهمة في تاريخ القضية الفلسطينية، ومواجهة المشروع الصهيوني، إذ شعر الفلسطينيون، لأول مرّة منذ عقود، بأنّ قضيتهم الوطنية العادلة قد بدأت بالعودة إلى عمقها العربي والإسلامي، بعد محاولات غربية وإسرائيلية، وحتّى محاولات بعض النظم العربية الرسمية لسلخها عن عمقها العربي والإسلامي، جزءاً من مخطط تصفيتها، عبر تهميش القضية، وإسقاطها من النقاش الإقليمي والدولي، لتمرير اتّفاقيات سلام منفردة بين إسرائيل ودول عربية، لتتطور لاحقاً لاتّفاقيات وشراكات وتطبيع بين إسرائيل وأنظمة عربية، إذ ترى إسرائيل أن تطبيع تلك الأنظمة العربية معها، يعني تخلي فلسطين وقضيتها ونسفها للقرارات الصادرة عن الشرعية الدولية، وإنهاء القضية الفلسطينية نهائياً، وضرب قوى المقاومة كلّها في المنطقة، التي ترفض مشروع الهيمنة الأميركية والإسرائيلية. أضافت ليلة الصواريخ الإيرانية بعداً جديداً يتمثّل في ضرب سردية الاحتلال، بأن إسرائيل هي المكان الأكثر أمناً ليهود العالم، إذ أدت الصواريخ الإيرانية إلى فقدان الإسرائيليين لإحساسهم بالأمن الفردي، كما الأمن الجماعي، حين اضطرت إسرائيل كلّها إلى النزول إلى الملاجئ، في مقابل ذلك أثلج ذلك الخوف، الذي أصاب الإسرائيليين، صدور الفلسطينيين، وأدخل الفرحة إلى قلوب الملايين، الذين كانوا ينتظرون أي موقف من أيّ دولة عربية كانت، إلى أن أتى الرد الإيراني، وإن كان جزءاً كبيراً منه رداً على جملة كبيرة من الإهانات والاعتداءات والاستفزازات، التي قامت بها إسرائيل ضدّ إيران.

كان القصف الإيراني، في مساء الأول من أكتوبر 2024 ردّاً على اغتيال رئيس المكتب السياسي السابق لحركة حماس، الأستاذ الشهيد إسماعيل هنية، في نهاية يوليو/ تموز الماضي في طهران، وعلى اغتيال الأمين العام لحزب الله الشهيد حسن نصر الله، في نهاية سبتمبر/ أيلول الماضي، إضافة إلى الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على منشآت وشخصيات إيرانية في سوريا والعراق، كما جاء الرد الإيراني في خضم نقاش فلسطيني وعربي وإقليمي ودولي، حول مدى جدية إيران في الرد المباشر، ومن أراضيها على إسرائيل، أو عبر الاستمرار بما يسمى بالحرب غير المباشرة، عبر حلفاء إيران وشركائها في المنطقة، حزب الله اللبناني، وجماعة أنصار الله الحوثي في اليمن، والفصائل العراقية موالية لإيران، إذ يدّعي خصوم إيران في المنطقة أنّ إيران لن تضحي بمصالحها، ولن تواجه إسرائيل من أجل فلسطين، والقضايا العربية، إنّما ستستخدم العرب لخدمة مشروعها ومصالحها في المنطقة، إلّا أنّ الرد الإيراني النوعي، والكبير والمفاجئ، الذي لم يسبق أن قام بمثله جيش عربي، من بداية المشروع الصهيوني وإقامة الكيان الإسرائيلي عام 1948، قد طاول مواقع ومنشآت استراتيجية حساسة في عمق إسرائيل.

تظاهرة في طهران احتفالاً بالرد الإيراني على اعتداءات الاحتلال الإسرائيلي (مرتضى بيكوبازل/ Getty)

أعادت الصواريخ الإيرانية الشعب الفلسطيني إلى عام 1991، أي لأكثر من ثلاثين عاماً مضت، حين قصف العراق إسرائيل بعشرات الصواريخ البالستية، في ظهر القضية الفلسطينية، لأنه يُفترض أنّ القضية الفلسطينية هي قضية العرب الأولى، كون فلسطين وشعبها ومقدساتها جزءاً من العالم العربي والإسلامي، كما أنّ مسؤولية تحرير المقدسات الإسلامية، خصوصاً المسجد الأقصى المبارك، الذي يعتبر جزءاً من عقيدة الإسلام والمسلمين، ملقاة على عاتق العالمين العربي والإسلامي، رغم ذلك يتزامن الحديث الأميركي/ الإسرائيلي عن جلب أنظمة عربية جديدة للتطبيع مع تدنيس المستوطنين اليهود المتطرفين لأولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، في ظلّ صمت عربي وإسلامي مريب.

> أعادت الصواريخ الإيرانية ثقة الفلسطينيين بإمكانية كسر منجهية إسرائيل وغرورها

وخرج الفلسطينيون في الضفة الغربية، وقطاع غزة، والداخل إلى الشوارع، وصعدوا على أسطح المنازل والبيوت لمشاهدة الصواريخ وهي تنقض على المواقع الإسرائيلية. كما أعادت الصواريخ الإيرانية ثقة الفلسطينيين بإمكانية كسر عنجهية إسرائيل وغرورها، خصوصاً أنّ إسرائيل المغرورة لا تفهم سوى لغة الخوف والقوة، وظهر ذلك بوضوح حين دعت الجبهة الداخلية التابعة لجيش الاحتلال الإسرائيلي الإسرائيليين بإمكانية كسر إلى النزول إلى الملاجئ، بمن فيهم رئيس حكومة الاحتلال بنيامين نتنياهو، والقادة العسكريون والسياسيون والأمنيون، الذين اختبأوا بملجأ محصن ضدّ الأسلحة النووية تحت الأرض في جبال القدس المحتلة، في الوقت الذي كان فيه ملايين الفلسطينيين يصفقون ويهتفون فرحاً حين أضاءت صواريخ إيران سماء فلسطين، كما تعززت الثقة الفلسطينية أكثر بعد مشاهدة الصواريخ الإيرانية وهي تفلت من مئات صواريخ القبة الحديدية الإسرائيلية لتصل إلى أهدافها بدقة، حين فشلت منظومات الدفاع الجوي الإسرائيلية والأميركية والغربية في اعتراض غالبية الصواريخ الإيرانية، وذلك على مرأى من ملايين الفلسطينيين، ما مثّل محطة مهمة في إعادة بناء وعي جمعي فلسطيني تحرري، مفاده إمكانية هزيمة إسرائيل، وبأنّ الشعب الفلسطيني لم يعد وحده، خصوصاً في ذروة عملية الإبادة والتطهير العرقي.

أدى غرور إسرائيل وعنجهيتها إلى تفسيرها حرص إيران على عدم الدخول في حرب على أنّه ضعف وخوف من إسرائيل، ما دفع إسرائيل إلى التمادي كثيراً في إهانة إيران وحلفائها في المنطقة، سواء بالهجوم على قنصليتها ومنشآتها ومسؤوليها في سورية، الذي ردت عليه إيران في حينه بضربات صاروخية في الثالث عشر من إبريل/ نيسان، لكنّ ذلك القصف لم يكن قوياً، ولم يرقَ للإهانات والاعتداءات الإسرائيلية، ما فتح شهية إسرائيل أكثر باتّجاه استمرار اعتداءاتها على المصالح الإيرانية داخل إيران وخارجها، كما تعزّز الغرور الإسرائيلي وتماديها في حينها نتيجة نجاح الدفاعات الجوية الأميركية والغربية والإسرائيلية في إسقاط أغلبية الصواريخ الإيرانية في ضربة إبريل، ما طمأن إسرائيل أكثر وشجّعها على التمادي، إلى أن وصلت الوقاحة والعنجهية إلى حدّ الاعتداء على العاصمة الإيرانية، وذلك باغتيال الأستاذ الشهيد إسماعيل هنية، رئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية حماس، أثناء حضوره احتفال تسلم الرئيس الإيراني الجديد مسعود بزشكيان مهامه، ثم اغتيال الأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله، وما يمثله نصر الله بالنسبة لإيران في المنطقة، ما فرض على إيران أن تُعيد النظر في سياستها، وأجبرها على التخلي عن سياسة الصبر الاستراتيجي، لتقوم بهجومها القوي والكبير في ليلة الأول من أكتوبر.

تزامنت الصواريخ الإيرانية مع عملية فدائية فلسطينية نوعية في مدينة يافا، نفّذها شابان فلسطينيان من مدينة الخليل، وأدت إلى مقتل سبعة إسرائيليين وإصابة آخرين، ما عقّد المشهد الإسرائيلي، وجعل الأمن الفردي الإسرائيلي في مهب الريح، كما الأمن الجماعي، والأهم من ذلك هو تحول الحرب على غزة إلى قضية إقليمية ودولية تكرس أكثر واقع أنّ فلسطين هي مفتاح الأمن والاستقرار الإقليمي والدولي، إذ عادت القضية الفلسطينية إلى صدارتها الإقليمية والدولية، وبدأت تتعالى الأصوات العالمية المشددة على ضرورة إيجاد حل عادل ودائم للقضية الوطنية الفلسطينية، من خلال حصول الشعب الفلسطيني على حقوقه السياسية والوطنية الجماعية.

الرد الإيراني: المغزى والتداعيات

إعادة الترابط مع الحلفاء

حاولت إيران هندسة ردها ليحقق أهدافاً عدّة، من دون أن يتناقض وخطاب رئيسها، ودبلوماسيتها الحالية، ويبدو أن هذا الرد يشير إلى ملامح السياسة الإيرانية الإقليمية الجديدة، التي تقوم على التوازن بين الردع الإقليمي والتعاون

إبراهيم ربايعة

خلفية الرد الإيراني

مع مطلع أكتوبر/ تشرين الأول 2024، أطلقت إيران نحو مائتي صاروخ بالستي فرط صوتي «فتاح» وصلت إلى عمق الأراضي الإسرائيلية (وفق التصريحات الإيرانية بلغ 90% منها أهدافها)، واستهدفت وفق ما أعلنت طهران مواقع عسكرية إسرائيلية حساسة وحيوية، منها تجمعات القوات العسكرية الإسرائيلية في محور نتساريم الفاصل بين شمال قطاع غزة وباقي مناطق القطاع، فضلاً عن مقرّ الموساد، وقاعدة حتسيريم المسؤولة عن اغتيال أمين عام حزب الله، حسن نصر الله، إلى جانب ثلاثة قواعد عسكرية جوية، وقاعدة نيفاتيم التي تضم مقاتلات «إف- 35».

جاءت «ليلة الصواريخ الإيرانية» رداً إيرانياً ثانياً على استهداف إسرائيل المتكرر لها ولحلفائها في الإقليم، من حركات المقاومة في فلسطين ولبنان، إذ كانت «ليلة المسيرات» في إبريل/ نيسان 2024 رداً إيرانياً أولاً على تفجير قنصلية طهران في العاصمة السورية دمشق، في ما جاءت ليلة الصواريخ رداً على سلسلة ضربات واجهتها طهران خصوصاً، والمحور عموماً، أبرزها اغتيال رئيس المكتب السياسي لحركة حماس إسماعيل هنية، أثناء وجوده في طهران، واغتيال أمين عام حزب الله حسن نصر الله.

جاءت العملية الإيرانية بعد نحو شهرين من اغتيال إسماعيل هنية، وهي فترة وصفت بفترة الغموض الاستراتيجي، الذي أفضى إلى إرباك حسابات تل أبيب وواشنطن، لكن؛ وعلى الجانب الآخر، بدأ يظهر الشك بمتانة علاقة طهران مع حلفائها الإقليميين (حزب الله اللبناني وحركة حماس وجماعة أنصار الله الحوثي)، ونيتها الانخراط في المواجهة، واستعادة التوازن الاستراتيجي إقليمياً، خصوصاً بعد ضربات إسرائيلية نوعية وجهت أساساً لحزب الله، كعملية البيجر واللووكي توكي، اللتين شكلتا صدمة وضربة مؤلمة للحزب وهياكله القيادية، وحالة إحباط في المحور عامة، خاصة في ما تلاها من استهدافات، شملت ضرب الحزب على مستوياته القيادية كلّها، العليا والوسيطة والميدانية، وكان أبرزها اغتيال حسن نصر الله.

مشهد مرتبك ودبلوماسية إيرانية هادئة

تجلى المشهد المرتبك في اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، إذ قدم رئيس الوزراء الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، نفسه قائداً منتصراً يُقاتل من أجل «شرق أوسط جديد» تعتليه إسرائيل، وتقود فيه التعاون الاقتصادي والسيطرة الأمنية، مقابل هلال مظلم تمثله إيران وحلفاؤها، في ما قدم الرئيس الإيراني، مسعود بزشكيان، خطاباً هادئاً يتسق مع القانون الدولي، يدعو فيه للتعاون والسلم في الإقليم، وعزز هذا الخطاب بمقابلات إعلامية أوحى فيها بأن إيران تريد الاقتراب من دول الإقليم، وترغب بهندسة تعاون إقليمي إسلامي. وبهذا، بدا أننا أمام مشروعين متنافسين على الاستحواذ الإقليمي، كلٌ بلغته وأدواته.

حاولت إيران هندسة ردها ليحقق أهدافاً عدة، من دون أن يتناقض وخطاب رئيسها، ودبلوماسيتها الحالية، ويبدو أن هذا الرد يشير إلى ملامح السياسة الإيرانية الإقليمية الجديدة، التي تقوم على التوازن بين الردع الإقليمي والتعاون، إذ يظهر الرد إلى استعادة التوازن في الاشتباك بين طهران وتل أبيب، خاصةً أن إسرائيل حاولت منذ بداية هذه الحرب الترويج لتفوق دفاعاتها أمام الهجمات الصاروخية، ويبدو أن طهران، ولتحقيق هذا الهدف، ذهبت إلى استهدافات عسكرية مركزة ومحددة ونوعية، رمت للوصول وكسر ادعاء التفليف، والحماية المطلقة إسرائيلياً، مع الحرص على عدم إلحاق خسائر بشرية تؤدي إلى نتائج عكسية، وتخرج طهران من مساحتها المحسوبة.

إلى جانب ذلك، أعادة طهران، بهذه الضربة وحجمها ونوعها، تأكيد الترابط مع حلفائها الإقليميين، والانتصار لهم، خصوصاً حزب الله، الحليف الأيديولوجي، الذي تلقى الضربات الحادة من تل أبيب، كما سمح هذا الرد للحزب بالتقاط الأنفاس، لمحاولة ترتيب أوراقه الداخلية، في ظل تشتت أولويات تل أبيب في الأيام التي تلت الضربة.

على عكس ليلة المسيرات في إبريل/ نيسان 2024، لم يكن الخطاب السياسي والإعلامي التعبوي الإيراني، وإعلامها المساند في الإقليم حاداً تجاه الدول العربية، بل شهدت المنطقة في الأسابيع التالية للضربة زيارات مكثفة للرئيس الإيراني، ووزير خارجيته لدول المنطقة، خاصة دول الخليج والأردن، في محاولة لتحييد دول الإقليم عن الاشتباك الإيراني الإسرائيلي، ورغم توازي هذه الزيارات مع خطاب تحذيري، من الحرس الثوري الإيراني، لدول الخليج العربي تحديداً، من السماح بأي انخراط أميركي بالرد الإسرائيلي من أراضيها، إلا أن الأساس البادي حتى اللحظة هو مسار دبلوماسي هادئ، لا تأجيجي.

لا يمكن اعتبار هذا المسار دبلوماسية إيرانية طارئة، فخلال السنوات الماضية، شهدت العلاقات الإيرانية العربية، والخليجية تحديداً، أشكالاً متراكمة من تطبيع العلاقات، والبحث في تعاون اقتصادي وسياسي إقليمي، لكن التحديث الذي فرضته الحرب منذ السابع من أكتوبر/ تشرين الأول، وضع تحدياً كبيراً وضخماً أمام مسار كهذا، خاصةً في ظل حساسيات العديد من الدول العربية، من جماعة أنصار الله الحوثي في اليمن، وحزب الله في لبنان تحديداً.

> انعكاسات هذه المواجهة على الإقليم مرتبطة بشكل واضح ومحدد بالرد الإسرائيلي

تطورات إقليمية متلاحقة غير تأجج

تشير هذه الديناميكيات الإقليمية إلى أن إيران دولة ذات مشروع إقليمي، تكيف أدواتها وتحولات هذا المشروع، لا العكس، وهذا يعني أن طهران تقرأ علاقاتها الإقليمية من هذه الزاوية، فمن غير المعقول على سبيل المثال استثمار علاقاتها بالعديد من الدول العربية القريبة من واشنطن، لضمان عدم انجرار الأخيرة نحو حرب إقليمية شاملة، ربما تسحبها تل أبيب إليها، وبهذا الإطار؛ من المقبول لطهران الاستجابة لقواعد لعبة منضبطة، تسمح لها بالرد الضابط للتوازن الإقليمي من جهة، وتحميها من رد فعل إسرائيلي- أميركي مدمر، يطيح مكونات مشروعها، وبعيد تجارب كالعراق، هذا ما سمح بتجاوز الحدة في العلاقة مع بعض الدول المهمة في الإقليم، كالأردن، لتشهد الأسابيع الماضية تبادلاً للزيارات بين طهران وعمان على مستوى وزراء الخارجية، وعدم انتقاد طهران للموقف الأردني بعدم السماح باستخدام أجوائها في هذه المواجهة.

من المهم هنا الإشارة أيضاً إلى توائم الدبلوماسية الإيرانية الراهنة مع تحولات في دبلوماسية العديد من اللاعبين الإقليميين، وعلى رأسهم المملكة العربية السعودية، التي بدأت خلال السنوات الأخيرة في تصفير مشاكلها الإقليمية، والبحث عن نماذج تعاون تربطها مع اللاعبين المركزين في الإقليم، إلى جانب تركيا التي حاولت اتباع الاستراتيجية ذاتها إقليمياً.

من المهم هنا الانتباه إلى أن الصفحة الجديدة، بانعكاسات هذه المواجهة على دول الإقليم، مرتبطة على نحو واضح ومحدد بالرد الإسرائيلي القادم وفق ما أعلنت عنه إسرائيل نفسها، من حيث شكله وحجمه وطبيعته، ولن نكرر هنا تفصيل سيناريوهات الرد المتصلة باستهداف البرنامج النووي الإيراني، أو منشآت النفط، أو منشآت عسكرية حيوية، أو استهداف نوعي مركز «اغتيال مثلاً»، لكن نشير إلى أن كل رد إسرائيلي سيستدعي رد فعل مباشر، وفق ما أعلنت طهران، يتناسب وطبيعة الاستهداف. وهذا يرتبط بسؤال آخر حول مدى الانخراط الأميركي في الرد الإسرائيلي، والدفاع عن رد الفعل الإيراني المتوقع لاحقاً، ومصدر هذا الفعل الأميركي إن حدث، وربما نصب منظومات صواريخ ثاد الأميركية، وهي صواريخ دفاع جوي مخصصة لصد الاستهدافات البالستية، تشير إلى سخونة الاحتمالات المفتوحة في المرحلة المقبلة.

بين رغبة نتنياهو برد قوي وتدميري، يضرب المشروع النووي الإيراني، ويجر الولايات المتحدة إلى حرب تستهدف طهران استهدافاً مدمراً، وما بين الضوابط الأميركية، التي لا تريد الانزلاق نحو مواجهة إقليمية، قد تحمل آثاراً مدمرة على الإقليم والولايات المتحدة على حد سواء، تأتي الانتخابات الأميركية مساحةً رمادية، ليس من الواضح ما ستكون عليه القدرة الأميركية- السياسية- على ضبط تل أبيب ورد فعلها، لكن تبدو فعالية القنوات الخلفية بهذا المشهد، بين واشنطن وطهران، ما تزال عالية حتى اللحظة.

من هنا، لا يمكن قراءة انعكاسات ليلة الصواريخ الإيرانية على الإقليم بالثابتة والناجزة، فهي ما تزال متحركة تتفاعل وستتفاعل أكثر، ما دامت هذه الحرب مفتوحة، ومرشحة للانزلاق لتصبح إقليمية في أيّة لحظة، وهذا ما تسعى دول الإقليم المركزية، والخليجية على وجه الخصوص، إلى منعه وتفاديه، لكن قد تكون لتل أبيب كلمة أخرى، تغير المشهد على وقع انشغال واشنطن بانتخاباتها الداخلية في الأسابيع المقبلة.

مؤتمر صحافي لوزير الخارجية الإيراني عباس عراقجي في دمشق 5/ 10/ 2024 (لوي بشارة/فرانس برس)

فلسطين في شهر

يحيى السنوار في لقاء مع الصحافيين للحديث عن جرائم الاحتلال وإرهابه بحق أطفال فلسطين (مصطفى حسونة/الأناضول)

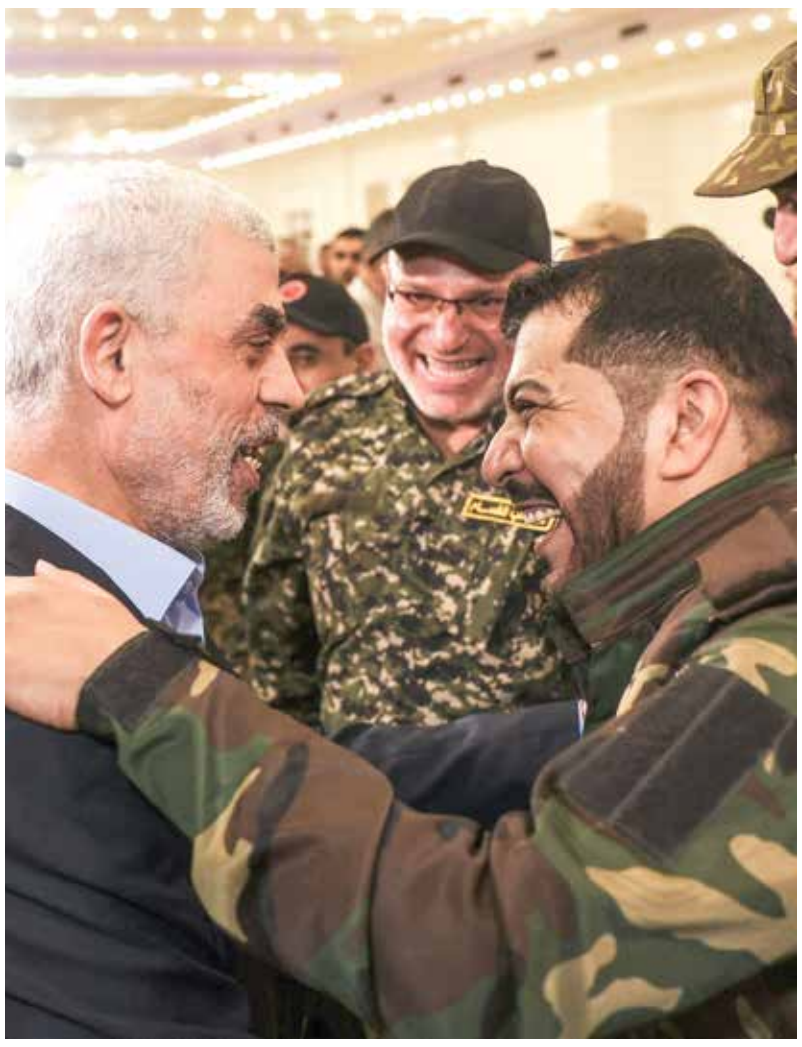

من استقبال السنوار لأعضاء كتائب عز الدين القسام في قطاع غزة (محمود الهمص/فرانس برس)

لم يمُت السنوار

علاء أبو عامر

ارتقى السنوار شهيداً وهو يقاتل، لم يكن مختبئاً وسط أسرى العدو، ولا جالساً في نفق، ولا مختبئاً وسط خيام النازحين، مستخدماً إيّاهم دروعاً بشريةً، كما أشاع العدو وحلفاؤه وأعوانه من العرب، بل ومن بعض الفلسطينيين. بل كان مقاتلاً متنقلاً، من موقع إلى آخر، بلباسه العسكري، وجعبته القتالية، وسلاحه وأمشاط رصاصه، فدائياً كما عاش دوماً، وكما أراد لحياته أن تكون منذ كان فتى، طالبه بعضهم بالاستسلام لإيقاف الحرب، وطالبه الصهاينة بالخروج إلى المنفى، مقابل عدم ملاحقته وقتله، لكنه ظلّ غير آبه بكل هذه الحرب النفسية، التي مورست عليه، وعلى رفاقه من قيادات المقاومة في قطاع غزّة. يتخيل كاتب المقال أنه كان يسمع الشتيمة والدعاء عليه من قِبل بعض ضعاف النفوس، ومن بعض الجهلة والمساكين، الذين يتأثرون بدعاية الإبراهيميين من عرب الصهاينة، القائلين بأنّه «السبب في كلّ ما يحدث، فلولا طوفانه، كما يقول عملاء العدو وطابورهم الخامس، ما وجد العدو ذريعةً للقتل والتدمير!».

أيّ ألم مرَّ به واجتاحه وهو يجازف بكلّ شيء من أجل وطنه، ويسمع كل هذا الكذب والظلم والجور في تبني سردية العدو وتبرير أفعاله؟ لكنّه، في الوقت نفسه، كان يشعُر بفرحة لا توازيها فرحة وهو يسمع زغاريد النساء، وفرح الأطفال، وضحكة عيون الكبار عندما يهللون لرجاله وهم يدمرون الدبابات، ويقتلون جنود العدو داخل فتحات الأنفاق، بكل تأكيد امتزجت سنة من عمره النضالي بمشاعر مختلفة، لكن التصميم هو التصميم، على النصر والتحرير، والتمسك بالشعار الخالد «إنه لجهاد، نصرٌ أو استشهاد».

اجتاحت مشاعر حزن وفرح مختلطة أبا إبراهيم طيلة عام كامل، كان الرجل فيها يبيت كما يبيت الشعب، يتنقل مثلهم، يسير معهم، وربّما بجوارهم، يعاني مثلهم، يأكل مثلهم، يعطش مثلهم، بل ربما أكثر منهم، فهو لا يفكر كيف ينجو، بل كيف يقاتل وينتصر. عاجلته المعركة الأخيرة في تل السلطان ولن يرى النصر الذي حلم به، لن يعود إلى المجدل «عسقلان» محمولاً على الأكتاف، أو راكباً حصاناً أبيض كالفاتحين الذين تخيّلهم وهو يقرأ كتب التاريخ عن خالد بن الوليد، وصلاح الدين الأيوبي، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، وغيرهم. لكن المؤكد أنّ شعبه سينقل جثمانه يوماً إلى المجدل المحررة من رجس الاحتلال، بكل تأكيد كان قد رأى هذا اليوم قريباً، ولعله قريب.

ارتقى السنوار «لا حاجة للأوهام، المشكلة الفلسطينية قائمة وحية، تمكن السنوار من رفعها إلى آفاق جديدة، هذا الإنجاز لن يختفي، الحملة المناهضة لإسرائيل لن تتوقف لحظة، بالنسبة لشعبه وللعرب والمسلمين، السنوار هو تشي غيفارا، لن يكون مفاجئاً إذا ظهرت في المساء أو غداً قمصان تحمل صورته». هذه العبارات للكاتب الصهيوني في صحيفة يديعوت أحرونوت، بن درور يميني.

عبارات الكاتب الصهيوني أعلاه تختصر المسألة والصورة كلّها، استشهد السنوار، كما أراد، نهايةً تليق ببطل، بفدائي لا يعرف اليأس، ولا يخضع ولا ينكسر، هكذا وصفه محققو العدو، ورفاقه، وأبناء حارته ومدينة لجوئه خانيونس، وزملاؤه في الجامعة. أما بخصوص السؤال الذي يطرح اليوم، ماذا بعد السنوار؟ فنجد إجابته في اليوم الذي سبق استشهاد السنوار، فهذا نضال شعب لا أفراد، حتماً سيتحول السنوار إلى أيقونة، بل أراه قد تحول منذ الآن، نحن أمام غيفارا فلسطيني عربي مسلم، ستصبح حياته واستشهاده مصدر إلهام للأجيال الفلسطينية والعربية القادمة، إذ دوّنَ الرجل اسمه في التاريخ كأول عربي يذل الصهاينة ودولتهم، كما لم تُذل يوماً، هذا قولهم، قول العدو قبل الصديق، وزعزع أساس كيانهم. فما كان قبل الطوفان ليس كما بعده، هذه مرحلة ستؤسس لمرحلة نهاية المستعمرة الأنجلو سكسونية في بلاد العرب والمسلمين.

لقد بات الرجل أسطورة، كما سيظل، حتى بعد استشهاده، كابوساً للصهاينة، فقد أصبح السنوار رمزاً لشعبه، ونموذجاً لأجيال الفدائيين، راهناً وفي المستقبل، كذلك من الصعب إيجاد شخصية بديلة له، قائدة للحركة، فأمثاله قليلون، هناك فرادة فيه، هو رجل أمن وفدائي وأسير سابق، وكاريزما قوية، وشجاع إلى أقصى درجات الشجاعة، يمقت الخيانة والخونة، ويطارد العملاء، متقشف في حياته، ابن المخيم الذي لم يتجاوز بيئته ومعنى الانتماء له، حلمه كان فلسطين كلّ فلسطين غير منقوصة. وعليه من بين من تبقى القيادات مثله؟ لا أتخيل أحداً، قد يقال، ليست مسألة أشخاص، لكن دور الفرد مهم خصوصاً في تاريخنا، بل وفي تاريخ حركات التحرر عامةً.

روّج كثيرون لأكاذيب مفادها أن استسلامه، أو موته، سيؤدي إلى نهاية الحرب، وإنقاذ الغزيين، ها قد استشهد والعدو لم يُنهِ الحرب، العدو أُهين وأُذل، لكن ما قام به السنوار ورفاقه بهجوم السابع من أكتوبر كان عملية دفاعية واستباقية، فهذه الحرب كانت قادمة لا محالة، تدرب عليها الأميركان والصهاينة في الكيان لسنوات، وأجروا المناورات للحرب على جبهتين في الشمال، أي لبنان، وقطاع غزة، آخرها كان في شهر مارس/ آذار 2023 أي قبل سبعة أشهر من هجوم أكتوبر القسامي فقط، كانت شرارة الحرب أو الطوفان ستبدأ بالأقصى كما كلّ مرة، لكنها، بدأت من قرى قضاء غزة (الغلاف)، والسيطرة على القواعد العسكرية فيه، معجزة هزت العالم، وها هي تمتد للمنطقة كلّها، وتخلق معادلات جديدة، ستغير المنطقة، لكن من سيشكلها هذه المرة هم أهلها، وليس الدول الاستعمارية وصنيعتها الصهيونية قبل مائة عام، السابع من أكتوبر، أو أكتوبر السنوار، حيث ولد وصنع طوفانه واستشهد، هو بداية الفتح، بداية التحرر الحقيقي، في أول حرب دامية ومؤلمة تبث فيها الإبادة الجماعية مباشرة إلى العالم، حيث عُرّي الغرب وأنظمة العرب، وظهرت البطولة والفداء والثبات الفلسطيني على الأرض. قُتل السنوار، بحسب الرواية الصهيونية ذاتها، وهو يُقاتل لابساً جعبته، وحاملاً سلاحه في معركة بطولية، لم يهزمه أحد، أطلقت عليه النار دبابة معادية عن بعد، استشهد أبو إبراهيم مقاتلاً في المعركة، نال شرفاً وعزّةً وفخراً نادراً، قلائل من وصلوا إليه في الحالة الفلسطينية من قيادات الصف الأول، أتذكر هنا الشهيد القائد عبد القادر الحسيني، والشهيد القائد كمال عدوان، والشهيد القائد خليل الوزير، والشهيد القائد أبو علي إياد، وربما هناك غيرهم من القادة الذين استشهدوا في معركة، وخلّدوا في الذاكرة الفلسطينية، لكن السنوار سيتجاوزهم جميعاً إلى العالمية.

طفل فلسطيني في رام الله يرفع صورة السنوار بعد الإعلان عن استشهاده (جون ويسيلز/فرانس برس)

> أصبح السنوار رمزاً لشعبه، ونموذجاً لأجيال الفدائيين، راهناً وفي المستقبل

من مشاركة السنوار في مسيرات العودة الأسبوعية على حدود قطاع غزة (مؤمن فايز/Getty)

رفع صور السنوار في العاصمة الإيرانية طهران عقب الإعلان عن استشهاده (فاطمة بهرامي/ الأناضول)

من اجتماعات السنوار مع قادة الفصائل الفلسطينية في قطاع غزة (علي جاد الله/الأناضول)